

علم نفس
قرآني جديد

٢

الدين كالماء والهواء

منذ مشرق الحضارة فى مصر منذ أكثر من سبعة آلاف عام، والبوصلة الأولى لحركة الحياة فى مصر كانت هى الخوف من الله.. وعلى جدران المعابد جميعها رأينا رسم الميزان فى الآخرة وطقوس البعث والحساب والثواب والعقاب.. وفى كتاب الموتى (وهو ما تبقى من صحف النبى إدريس) وجدنا بصمات التوحيد والتمجيد للواحد الذى خلق كل شىء.. ورغم ما أصاب هذا التوحيد من انحرافات وثنية بفعل الكهنوت والسياسة والحكام فقد ظل الإيمان خاصية تضرب فى جذور المصرى القديم.. وحينما وفد الإسلام على مصر كانت مصر أكثر البلاد احتضانا له ولتعاليمه.. وأكثر البلاد احتفالا بالتوحيد.. واحتضن المصرى القرآن واحتفى به تجويدا وترتيلا وكتابة وإيمانا.

وخرجت أجمل الأصوات التى ترتل القرآن من مصر وأجمل الأقلام التى تخط القرآن من مصر.

ووجد المصرى فى القرآن صدى لما كان مكنونا فى قلبه.. ووجد فيه بوصلة هادية وضابط إيقاع وورقة عمل لحياته.. ووجد فيه الصدى والرجع لصوت الحق القديم فى وجدانه.

والذين يظنون أن مصر لن تتقدم إلا بنبذ الدين والإيمان والغرق فى الحياة المادية العلمانية لا يفهمون مصر ولا يفهمون الشخصية المصرية.. وأسألكم.

ماذا فعلت بنا العلمانية وماذا فعل بنا ترك الدين وماذا فعل بنا الغرق فى المادية والعبودية للنظام العالمى الجديد..؟!!

إن صفحة الحوادث تلخص لنا الكثير مما طرأ على حياتنا.. الابن الذى يقتل أباه والأم التى تقتل أولادها والممرضة التى تقتل مرضاها والأطباء الذين يجرون الجراحات الوهمية من أجل المال وناظر المدرسة الذى يدير شبكة للدعارة يستدرج فيها تلميذاته للعمل بالدعارة نظير نسبة من الأرباح.. وطلبة المدرسة الذين يشعلون فيها النار ليحرقوا سجلات غيابهم.. ونواب الشعب الذين يقترضون الملايين من أموال الشعب من البنوك بدون ضمانات.. والغش والفساد والرشاوى والسرقات والعمولات بالملايين التى تتسرب من اقتصاد البلد الذى أصبح كالغربال الملىء بالخروق.. والطبقة الوسطى التى تكاد تختفى ولا يبقى إلا طبقتان هما الأغنياء بلا حدود والفقراء بلا حدود وبينهما ألد العداء.

وهذا هو الإفراز الطبيعى لنبذ الدين والتهالك على الماديات والغرق فى الدنيويات والاستسلام للشهوات وموت الضمير الدينى وعمى القلوب وصدأ النفوس.

والمصرى لا يجد نفسه فى هذا اللون من التقدم.. وما هو بتقدم على الإطلاق.. بل هو انحلال وتفسخ وانهيار وجاهلية ثانية أشنع من الجاهلية الأولي.. وتلخيص عملية الإصلاح فى مسمى واحد هو «رفع دخل الفرد» هو تلخيص مخل للمشكلة الاجتماعية ولحقيقة الإنسان، فالمطلوب هو الارتفاع بالإنسان كله.. وليس مجرد محتويات جيبه.. ولا قيمة لبضعة ألوف زيادة فى الدخل إذا كانت ستنفق فى الجريمة وفى الإفساد.

إنه لابد إذن من «بوصلة هادية» للإنسان أولا.. وبدون الدين..

وبدون القيم.. لا معنى لشيء وبدون الإيمان.. لا أمل.

وكما بدأ شروق الحضارة فى بلادنا منذ أكثر من سبعة آلاف سنة بالإيمان، سوف تكون البداية الصحيحة الآن من نفس المنطلق.. من الإحساس العميق بالغيب وبالله الواحد القادر على كل شيء وبالوقفة التى سيقفها كل واحد منا ساعة الحساب.

ولا يتنافى مع هذا الإيمان أن نؤمن بالعلم وأن نسعى فى اكتسابه وأن نبنى وأن نعمر وأن نفكر وأن نتفلسف وأن نبدع وأن نتفنن وأن نحب وأن نعشق وأن ننشد الشعر وأن نقرأ ونغترف من كل جديد، فكل تلك الإبداعات هى من عطاءاته.. من عطاءات ذلك الإله العظيم الملهم.. والدين والعلم والفن والفكر تلازموا وترافقوا كإخوة بطول حركة التاريخ الإسلامى.. ولم يكن الإسلام إرهابا فى أى زمان .

وإذا عدنا إلى القرآن بنفوس عطشى وقلوب والهة فسوف نجد فيه الرؤى التنويرية التى يحتاجها عصرنا الفقير المعدم فى إيمانه الغنى لدرجة البطر فى امكاناته ومادياته.

نعم.. نحن فى أشد الحاجة للعودة إلى القرآن بأرواح عطشى ونفوس متطلعة بشوق لنفحات الغيب.. لنقرأ عن حقيقة نفوسنا وحقيقة عصرنا وحقيقة مشاكلنا.

أما الذين اختاروا نبذ الدين طريقا والعلمانية منهجا والدنيا غاية وحيدة.. فقد اختاروا الموت لنفوسهم ودخلوا الحارة السد التى لا مخرج منها.. وهم فى تيه وضياع حتى يعودوا إلى هويتهم المصرية من جديد.. إلى ذلك المصرى القديم الجديد الواقف مكان أخناتون المرسل عينيه إلى آفاق الغيب.. الهامس أبدا.

أبدا لا أموت.. بل أقوم من القبر لأقف بين يدى الديان.

هكذا كان يقول المصرى القديم.. ومن هنا بدأت حضارته.

وهكذا تشعر النفس السوية أمام مأساة الميلاد والموت.

أما الذين اكتفوا بالحياة المادية واستناموا إلى إشباع النفس الشهوانية فهم فى موت منذ ولدوا، وهم لم تتفتح عيونهم بعد على معنى الحياة.. وهم فى موت متجدد كل يوم.

إن غياب البعد الأبدى من الحياة وتقلصها إلى لحظات عابرة يؤدى إلى سقوط كامل للقيم ولا يبقى من الحياة إلا فاترينة استهلاكية وبطون تفرغ لتمتلىء وإيقاع متكرر ممل خال من المعنى.

وارتفاع نسبة الانتحار بين الشباب فى بلاد الشبع والوفرة والرخاء مثل السويد والنرويج يؤكد هذا الكلام.. إن إشباع الرغبات المادية لا يكفى ليجعل للحياة معنى وإنما سر الحياة وجمالها وسحرها فى بعدها الأبدى الغيبى وفى المعانى المتوارية وراء الحس وفى الكمالات التى تحكى عنها الأديان.

إن موت الروح وليس جوع البدن هو الذى يدفع هذا الشباب المرفه الشبعان إلى الانتحار.

واليأس والملل والصدأ النفسى والاكتئاب هى درجات السلم السفلى المؤدية للانتحار.. ولا شىء يمكن أن يجلو صدأ النفس مثل ترتيل بضع آيات يهمس بها القلب المؤمن فيطمئن ويهدأ ويسكن فيه طائر القلق.

إن التدين ضرورة اجتماعية، إنه الماء والهواء بالنسبة لهذا الزمان المنكود.. وفى كم المشاكل التى يعيش فيها الشباب يتزاحم على أبواب الجامعات وينتظر الوظيفة ويبحث عن عمل

ويبـحث عن سكن ويبحث عن شـريكة حيـاة.. هو فى حاجـة إلى الصبر.. ولا شىء يعـين على الصبر مثل الإيمـان.. وتحت سحابة التهـديد المستمـر على الحدود واحتـمالات المسـتقبل المحـفوف بالأخطار والسلام الإسـرائيلى الذى لا يعنى لنا أى سلام.. نحن فى حاجة إلى سلاح نفسى.. ولا يوجد فى ترسانة الأسلحة ما هو أقـوى من سلاح الإيمـان.. ولن نجد من هو أقـوى من الله معـينا وظهيرا وسندا وحـافظا وملهما عند الشدائد.. فكيـف يتأتى لعاقل فى مثل هـذه الظروف أن يقول بتـهميش الدين وتـهميش التـعليم الدينى.. ومـا يسميـه البعض بتـجفـيف الينابيع (أى تجفـيف كل مصـادر التزود بالـعلوم الدينية) وهو مطلب لا ينادى بـه إلا عدو لدود يريد بنا الهلاك والدمار.. وعلى من نعتـمد إذا لم نعتمد على الله.. وإلى من نتوجـه.. نتوجه إلى الدعم الأمـريكى أم إلى النجدة الأوروبية؟!!

إن الذين قـاتلوا المسلمـين فى البوسنة وفى ألبـانيا كـانوا هم الأوروبيين أنفسـهم .

والذين دمغوا الإسلام بالإرهاب واتهمـوه بالوحشية والعدوان كانوا هـم الأمريكان والأوروبيين.

فكيف نطلب الـنجدة والـعون منهـم.. وهم وإسرائـيل جبـهـة واحدة.

وإذا كانت الدبلومـاسية العـاقلة تقتـضـى مسالمـة الكل تفاديا للمشاكل.. فإنها لا يمكن أن تعنى قطع الصلة بمصادر قوتنا.

إن الإسـلام هو الدرع الواقى لهذه المنـطقة المـستـهدفـة من العالم..وهو خيمـة الأمان لمستضعفى هذا الزمـان.. بل هو خيمة الأمان لنصارى هذه المنطقة أيضا.

وأرجو ألا تغيب عن المسئولين هذه الحقيقة وألا تختلط عليهم الألوان.. وألا يخدعهم الكلام المزخرف والدبلوماسية المزوقة.. وأرجو أن يعود الأزهر إلى كامل تخصصه الدينى وأن يكف المشرفون فيه عن اختصار مقرراته وتقليص مساحة القرآن فيه، ثم إنكار ما يحدث ونشر البيان تلو البيان بأن كل شىء على ما يرام وليس فى الإمكان أبدع مما كان.

وأعود فأقول إن الإسلام هوالدفاع الاستراتيجى لهذه المنطقة كما فعل فى الماضى حينما صد الهجمة الصليبية وحينما انكسرت على حائطه جحافل التتار.. والغرب لن ينسى هذه الهزائم.. وهو لهذا يريد أن يقتلع هذه الشوكة التى فى طريقه.. وهو يركز هجومه هذه المرة على الإسلام نفسه فيحاول تشويهه ثم يتسلل إلى المؤسسة التعليمية الدينية تحت مسميات زائفة مثل تجفيف الينابيع زاعما أنه يريد أن يحمينا من الإرهاب (والإرهاب من صنعه) ثم يتسلل إلى برامج التعليم فى الأزهر فى محاولة لعلمنة الأزهر ثم يتسلل إلى حصن القرآن الحصين فى محاولة أخيرة لاختصار مقرراته تحت زعم التخفيف على الطالب.. وما هو إلا التسلل المدروس لذلك الحصون والمعاقل واحدا بعد الآخر.. والأيدى التى تساهم فى هذه الاختصارات هى شريكة فى هذه الجريمة من حيث لا تدرى ومن حيث تظن أنها تخفف على الطالب وهيئة التعليم فى الأزهر مسئولة عن كل ما يجرى على التعليم الدينى.

ولا يملك الراصد لهذه الظواهر المتتابعة إلا الشك.. فكلها خطوات محسوبة تهدف إلى هدف واحد هو إزاحة الإسلام من الطريق وتعطيل دوره الفاعل وفتح الطريق لعوامل الانحلال والفساد والتشرذم والفرقة والاختلاف تمهيدا لتفجير المنطقة كلها من الداخل.

ولا يمكن أن يحسن الظن بكل هذا إلا ساذج فليس فيما يجرى أمامنا أمورا عفوية تلقائية بل تدابير محسوبة.. وكانت البداية الملفتة هى هذا «الإرهاب» المصنوع والممول بسخاء والملصق عليه بطاقة الإسلام.. وإعلان إنجلترا استضافتها لمؤتمرات الجماعات الإسلامية الإرهابية.. عجبا..!! ومتى كانت إنجلترا موئلا وملاذا للإسلاميين من أى لون؟!! ومن الذى يغذى هذه الأرصدة بالملايين التى تودع فى حسابات هذه الطغمة من القتلة المحترفين فى بنوك الغرب.. وكيف يمكن أن نواجه كل هذا بإغماض العين وحسن الظن.. وكيف يمكن أن يفوت كل هذا على المؤسسة التعليمية فى الأزهر قلعة الدين وحصنه الحصين.

والخلاصة المفيدة لكل هذا أنهم يريدون ضرب الإسلام فى مقتل، وأنهم قرروا استئجار الحثالة المجرمة من المسلمين لهذا الغرض.. وأنهم يدفعون لهم ويدبرون لهم المأوى والملجأ والملاذ والشقق الفاخرة فى لندن وجنيف ويعقدون لهم المؤتمرات.. بل هم الآن يؤلفون السور القرآنية المزيفة وينشرونها على شبكة الانترنت لاقتلاع العقيدة من جذورها.

أما لماذا تكلفوا كل هذا المال والجهد.. فلأنهم أدركوا أنه لا سبيل إلى هزيمة المنطقة وتفجيرها إلا بضرب الإسلام وتفجيره.. والمعنى المستفاد.. أن الإسلام هو بالفعل درع المنطقة وركنها الشديد وصمودها وقوتها ،وهو الحارس الذى يُستدعى عند النوازل والشدائد ولا أحد يمكن أن يحل محله ساعة الهول.. وهو منتصر دائماً وأبدا.. رغم جميع عوامل الإحباط.. ومن كان يتصور أن الحملة الصليبية التى اشتركت فيها تمويلا وتسليحا كل دول أوروبا.. كان يمكن أن تنكسر على أبواب بيت المقدس

بهذه الفئة القليلة المؤمنة من المسلمين الذين خاضوا الحرب.

ومن كان يتصور أن جحافل التتار الذين لم تقف أمامهم قوة فى آسيا ولا فى الشرق الأوسط.. والتى تهاوت أمامها الحصون والقلاع.. كان يمكن أن تنهزم أمام هذا المملوك «قطز»... ومعه شرذمة من المقاتلين المسلمين لا يملكون إلا أسلحة محدودة.

إنه الإسلام فى الحالين.. وراية لا إله إلا الله التى لا تُهزم.

هم أدركوا هذا.. ولهذا دبروا من البداية للقضاء على الإسلام واقتلاعه من جذوره.. ابتداء من منابعه التعليمية ذاتها.. وقالوا فى أنفسهم.. نبدأ بالأزهر أولا.

وأقرأوا المقال من أوله.

إن الدين ليس فقط ضرورة اجتماعية.. وليس فقط أداة للسلام الاجتماعى.. بل هو الماء والهواء لكل إنسان.. وهو الركن الشديد الذى سنحتمى به ساعة الهول.

واذكروا هذه الكلمات.. فهى ليست كلمات للاستهلاك اليومى.